

فتح القسطنطينية

اللدكتور سالم أحمد الرشيدى

« لتفتحن القسطنطينية فلتنم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »
حديث شريف

تحتل مدينة القسطنطينية موقعا فريدا بين مدن العالم ، وحسبك أن تلقى نظرة عليها في الخريطة فتدرك ذلك . فهي تقع عند مائتى الفارين آسية وأوربا ، تحيط بها البحار من ثلاث جهات . وقد حبتها الطبيعة خصوبة الأرض وجودة الطقس كما حبتها أسباب القوة والنعمة . ولاقسطنطينية ميناؤها العظيم في القرن الذهبى الذى كان يمد أوسع وآمن ميناها في العالم . وكانت هذه المدينة فوق ذلك كله مسكرا عظيما للتجارة ، أتى إليها المتاجر من كل صوب من البر والبحر . وقد نوه نابليون بوناپارت بوجه خاص في المصور الحديثة بأهميتها وخطورتها فقال في شأنها

« لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » . وذكر نابليون في مذكراته التى كتبها في منفاه بجزيرة سانت هيلين Sainte Héline أنه حاول مرات عدة الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية (١) التركية ، ولكن وقعت القسطنطينية في كل مرة العقبة الكؤود دون الاتفاق . فقد كانت روسيا تلح في امتلاكها ونابليون يصر على عدم تسليمها . إذ أن هذه المدينة وحدها كانت في نظره تساوى إمبراطورية . وهي تمتد بمثابة مفتاح العالم ، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه . وقد كان نابليون في أشد الحاجة إلى صداقة روسيا لمواجهة عدوته الاسود إنجلترا ؛ ولكنه برغم ذلك لم يستطع أن يضحى بالقسطنطينية . ولو قد تم الاتفاق بين نابليون وروسيا

(١) يقول الثغوى الدلالة الأب أناس ماري الكرملى : « إن كتابة الإمبراطور بهذا الرسم كما يرسمه الماصرون لا يوافق القواعد العربية لأنه لا يرى في الكلم الضادية من عربية ومعرية ، فيها الميساكة ، ويلبها باه متحركة . فاذا وقع مثل ذلك رسمت اليم نونا . ولهنا يجب أن تكتب (الابرايطور) بنون ، وهناك لغات أخرى في كتابة هذه الكلمة مثل : ابراطور وانبرادور وانبرور وجيمها بالنون

-بيل عقيدته :

لا تسلم عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومه كفنا من سادته
بين جنبيه خافق يتأظى لنايته
صامت لو تسكنا لفظ النار والدماء
قل إن طب سمته خان الحزم أبكا
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

وخذ هذه القطة أيضا يصف بها الشهيد :

عبس الخطب فابتسم وطنى الهول فاقنعم
رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقدم
لا يبالي الأذى ولم يشنه طارىء ألم
لا تقل أين جسمه واسمه في قم الزمن
إنه كوكب الهدى لاح في فيهب المن
أرسل النور في البير ونفا تعرف الوسن

محمد بن الحسين

وفي شعره ثورة على الظلم وتبرم بالظالمين :

أغرب ما شاهدت في حكم الشعوب والأمم
مسلط يطاع فيها أمره ، وإن ظلم
وخادم يعطى له السيد أجر ما اجترم
السيد إبراهيم طوقان رحمه الله ، من شعراء الشباب في فلسطين ، في شعره حيوية وقوة تهيجها الذكريات الخالدة ، ونحركها الحوادث المظلمة ، فذكرى خالدة كذكرى واقعة حطين نصف في نفسه عصفا قويا ولا تنفك نصف حتى يقول :

قف على (١) حطين واخشع يشج قلبك ما شجاني
وانظر هناك هل ترى آثار يوسف في السكان
من كل خطار على الأخطار سيار الجنان
حلقات أدرعهم قيود الموت في درك العلمان
وسيوفهم ماء الحميم على مضاربين قان
والخيل طويح كتابها في النقع مرخاة المنان
لا تنثنى أو محرز القصباء ت في يوم الزمان
وخذ هذه القطة القوية التى يصف بها من مخاطر بيمانه في

(١) كنا

على مصير هذه المدينة لتغير مجرى تاريخ أوروبا وتغير تباين ذلك
مجرى تاريخ العالم كله

وقد أدرك الثروة والفاخون منذ القدم أهمية هذه المدينة
وخطورة موقعها فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات
كثيرة . غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة
حصونها أن تصد معظم الغزاة الفاتحين وكان للمسلمين نصيب
كبير من هذه المحاولات ، وقد وردت أحاديث كثيرة تبشّرهم
بفتح القسطنطينية منها قوله عليه الصلاة والسلام « لنفتحن
القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »
الأمر الذي زادهم تملقا وأملا في فتح هذه المدينة . وقد حاول
المسلمون فتحها منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان واستشهد تحت
أسوارها الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري في عهد معاوية بن
أبي سفيان . وهكذا أصبحت القسطنطينية — إلى جانب
أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية — أهمية دينية خاصة في نظر
العثمانيين الذين حملوا لواء الإسلام والحماد في سبيله بعد استقرار
دولتهم الجديدة في آسيا الصغرى في بداية القرن الرابع عشر
الميلادي . وقد أدرك عثمان أول سلاطين الدولة العثمانية —
كغيره من الفاتحين قبله وبمده — قيمة هذه المدينة وعظم
قدرها ولكنه لم يكن إذ ذاك قد بلغ من القوة ما يقدر به على
فتحها فأرصى بذلك من يأتي بعده . وقد حاصرها السلطان
بايزيد الأول والسلطان مراد الثاني ولكنهما لم يمسلا إلى فتحها
حتى جاء السلطان محمد الفاتح فاستطاع — بما أظهره من إحكام
القيادة وحسن التنظيم وسرعة الحياطة وقوة المزيمة والمصارفة
والجلد والتفكير في ابتداء آلات الحصار والقتال — أن يصل إلى
فتح هذه المدينة ، وحقق بذلك حلم الفاتحين منذ ألف عام كإحقق
البشارة النبوية الكريمة بفتح القسطنطينية

وقد أرمى السلطان الفاتح جنوده عند دخولهم هذه المدينة
باتباع تاليم الشرع الخفيف فلا يقاتلون إلا من قاتلهم ولا يمرضون
للنساء والأطفال والمعجزة بسوء أواذي؟ ويحسنون معاملة من يقع
في أيديهم من الأسرى وأن يكونوا أهلا للشرف العظيم الذي
حباهم به الرسول (ص) في حديثه
وباستيلاء المسلمين على القسطنطينية قضى على ما كان يستحق

فيها من التنازعات والشاحنات الدينية التي طالما أثارته الفتنة
وأراقت الدماء؛ وحرم السلطان الفاتح اضطهاد النصراني مجرما
قاطعا ولم يميز في تسامحه ومعاملته بين أحد منهم على اختلاف
عقائدهم ومذاهبهم بل جعلهم كلهم سواء وأظلمهم جميعا . مدله
ورعايته . وقد طلب إليه بمض الحملة التمهيدية قتل الروم وإبادتهم
إذا لم يدخلوا في الإسلام فأبى عليهم ذلك وقال إنه يخالف تاليم
القرآن وأذن للروم بانتخاب بطريركهم الجديد بنفس الراسم
الفخمة التي كانت تتبع في عهد الأباطرة الأول . وقد احتفى به
السلطان الفاتح وأعظم لقياءه وبالتم في تكريمه . ولكن مؤرخا
إنجليزي هو اللورد إيفرسي Lord Eversly قد استنتج من هذا
التسامح أنه دليل على أن العثمانيين في فتوحاتهم بأوروبا لم يكونوا
يقصدون إلى نشر الإسلام . وهو استنتاج خبيث الرمي والفرس
إذ معناه أن الإسلام قبل ذلك لم ينتشر بالتسامح والاختيار ،
وإنما نشر بالسيف والإكراه . ولو أن هذا اللورد الإنجليزي قد
شدا شيئا في تاريخ الإسلام لعلم أن هذا الدين في مختلف عصوره
وعهوده لم يفرض قط على أحد من الناس . ريقول السير توماس
أرنولد Sir Thomas Arnold : إن مدينة القسطنطينية بعد الفتح
العنهى الإسلامى أصبحت ملجأ العالم كله ، يأمن فيه الخائف
والذعور ويطمئن فيه المضطهد والمظلوم وينال فيه جميع الناس
العدل والمساواة والحريّة على قدر — واه — لا يميز بين غني وفقير
ولا بين عظيم وحقير . فكان فتح القسطنطينية بحق مفخرة من
مفاخر الإسلام التي ترمي بها التاريخ ومجدا من أعجابه الخالدة
الباقية على الدهر

لقد كان لسقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين (في
الشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ ٢٩ مايو ١٤٥٣) دوى
عظيم في العالم ولكن اختلاف وقته وآره في الغرب عن وقته
وآره في الشرق . أما النصراني في الغرب فقد صدمهم نيا هذا
الحادث وعللهم الفزع والألم والخزي ونجس لهم خطر المسلمين
وتهديدهم لأوروبا انه . انية وتوجسوا أن يكون انتصار محمد الفاتح
بداية لتوفقه في أوروبا فأخذوا يتبعون خطواته وحركاته بقلق
واهتمام وعظمت في أعينهم أهمية القسطنطينية وخطورة قيمتها .
وازداد الأتراك العثمانيون شهرة في الناحية العسكرية بمد

العثمانيين إلى قتال جميع المسلمين وقررو جميع بلادهم إمامانا في الانتقام وأخذ الثأر لمدينة القسطنطينية . يقول المؤرخ المصري المعاصر أبو المحاسن ابن تفرى بردى « وفي هذا الشهر (ربيع الآخر ٨٦١ هـ مايو ١٤٥٧ م) وردت الأخبار من الإسكندرية وغيرها من بلاد الساحل أن الفرنج عمرت نحو ثمانمائة مركب لغزو سائر سواحل الإسلام من الروم إلى الإسكندرية ودمياط مكافأة لأخذ السلطان محمد بن عثمان اسطنبول من الفرنج خزام الله فلم يلتفت السلطان لهذا الخبر لانه شوكة الإسلام ونصرته إن شاء الله إلى يوم القيامة » (١) وقد أرسل الغرب النصراني فعلا فيها بعد حملات حربية إلى الشرق ولكنها كانت محدودة الأثر لم تتمد تخريب بعض المدن الساحلية في آسية الصغرى ذلك ما كان من حال النصارى في الغرب وموقفهم بيد فتح القسطنطينية . أما في الشرق الإسلامي فقد كان الأمر على عكس ذلك ، إذ عم الفرج والابتهاج بين المسلمين في ربوع آسية وإفريقية ، لهذا الفتح الإسلامي العظيم . وما أن وصل رسول السلطان محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح حتى هال المسلمون وكبروا وأذيت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صاوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والمحويات وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والبنود المزركشة المختلفة الألوان وأمضى الناس في هذه البلاد أياما كأن حسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة ورونقا ونها . وأي مسلم كان لا يقتبط وقد نمت نبوءة كريمة لنبيهم الكريم بفتح القسطنطينية التي استتمت على المسلمين منذ الصدر الأول من الإسلام ؟

ونزع هنا المؤرخ المصري المعاصر الثقة أبا المحاسن بن تفرى بردى يصف لنا شعور الناس وحلم في القاهرة بعد أن وصل إليها قائد السلطان محمد الفاتح ورفقته في الثالث والعشرين من شوال سنة ٨٥٧ (٢٧ أكتوبر ١٤٥٣) نبأ فتح القسطنطينية ومعهم

استيلائهم على هذه المدينة النعمة الخالدة . وقال حاكم مدينة غلطة في رسالة كتبها بعد فتح القسطنطينية بنحو شهر إن السلطان محمد الفاتح، يهدف إلى أن يكون سيد العالم وأنه قبل أن تمضي سنتان سيزحف إلى رومة . وعبر كتاب معاصرون آخرون عن مثل هذا الفزع . وخطب إينياس - أقيوس Aeneas Sylvius (الذي صار فيما بعد بابا باسم بي الثاني Pie 2) أمام ندوة فرانكفورت يقول : إن سقوط القسطنطينية قد جعل الحجر مفتوحة أمام محمد الفاتح وإذا ما خضعت له هذه البلدة انفتحت له الطربق لتزور إيطاليا وألمانيا . وبعت أحد شعراء النصرانية في الشرق بقصيدة طوبى إلى العالم النصراني يهيب به إلى قتال الأتراك وحث البابا نيقولا الخامس أن يعمل على توحيد كلمة أمراء النصرانية وتوجيه جميع جهودهم وقواهم لقتال العدو المشترك ثم اتهم الشاعر إلى المدراء ، ودعا أن يكتب النصر اقومه

ولحق أن النصارى في الغرب قد انبثت فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة وتداعى الناس إلى طرح الخلافت والحرايات والاتحاد ضد الأتراك . وعنف الكاردينال سنت أنج اللاتين وقرعهم على نماذلم عن نجدة الروم وأتى عليهم تيمة هذه الكارثة العظيمة . وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرا نبأ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وجد في توحيد الدول الإيطالية وتأليها على قتالهم، ورأس مؤتمرا في رومة أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على النهادن فيها بينها وتوجيه جميع جهودها وقواها ضد العدو المشترك

وكان من أعظم الناس تأثرا باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية فيليب الطيب دوق بورغويا وقد كان هذا الدوق بطبعه ذا نزعة صليبية قوية ومن أشد الناس تحمسا لقتال الأتراك من قبل سقوط القسطنطينية، فلما استولى هؤلاء على هذه المدينة وجاءه رسول البابا سنة ١٤٥٣ يستحثه على قتال محمد الفاتح التهب حماسا وحمية واستنفر جميع النصارى إلى هذا القتال وذهب بنفسه إلى ألمانيا يستنمض إمبراطورها فريدريك الثالث . وبعت هذا الإمبراطور بدوره إلى ملك فرنسا شارل السابع كما بعث إليه في نفس الوقت الملك ألفونس بيمثاته على حرب السلطان محمد الفاتح ، ولم يلبث أن تحولت الفكرة الصليبية من قتال الأتراك

(١) حكنا كان حال الإسلام منذ قرون . تنال جميع دول أوروبا وتمتد جوعها لنزو المرق فلا يترك ذلك في المسلمين أى الفات أو مبالاة اعتنادا بقوتهم وشوكتهم
فأين نحن اليوم من هذا ؟